

العنصرية والإرهاب في الأدب الصهيوني



د. خليل حسونة

كاتب وأديب فلسطيني

ومن هؤلاء «المجلس الأمريكي لليهودية الذي اتهم من قبل الحركة الصهيونية بالنتكر للدين اليهودي وخيانة أصولها ومحاباة العرب وتأييد قضايهاهم.

من هنا يمكن الافتراض بشيء كبير من الدقة «أن الصهيونية واليهودية فكرتان متداخلتان بعد أن عمدت الصهيونية إلى تزوير الشريعة الموسوية حتى يتسنى لها استعمار فلسطين، وعلى أساس ما كتب هرتزل من «أن الغاية تبرر الوسيلة»، وهي القاعدة التي انحصرت فيها الأفكار الرئيسية للصهيونية كما صاغها كلاسيكيوها هرتزل وبنسكو وبورخوف وغيرهم والمتمثلة في:

- اليهود هم شعب الله المختار.
- اليهود هم شعب ذو مصير تاريخي وسمات خاصة لا تتصف بها الشعوب الأخرى.
- كل يهودي ينتمي إلى الأمة اليهودية ويجب على اليهود أن يطمحوا للعودة إلى موطنهم القديم فلسطين!
على هذه الأسس استطاعت الصهيونية أدلجة

الظاهرة الأدبية الصهيونية لا تخرج عن كونها تنظير للفكر الصهيوني وتكنولوجيا لآلية فعله. فالأيديولوجيا هي مجموعة من التصورات والأفكار المترابطة والمتلاحمة التي تؤدي معنى محدداً للعلاقات الاجتماعية. وما أقصده بأداء المعنى هنا. هو أن المشتركين في هذه العلاقات يجدون أن تلك الأيديولوجيا طبيعية مقبولة صحيحة ومبررة ومشروعة. وهكذا فإن أصحاب أيديولوجية معينة يشاركون فيها ويمارسونها عفواً دون أن يكونوا مكرهين على ذلك.

استطاعت الأيديولوجيا الصهيونية خلق جسم مترابط من الأفكار المنبثقة عن المعتقدات والأساطير والحوادث التاريخية حقيقية كانت أم مزيفة، لتخفي بذلك التناقض الصارخ القائم بين شكلها ومضمونها. وهي بذلك تقوم على «ديماغوجية اجتماعية» بلا حياة وتؤثر على أناس مؤمنين غير ثابتين أيديولوجياً، وغير واعين سياسياً، وهي لأنها مبنية بشكل دقيق قادرة على التكيف حسب الظروف المختلفة. بحيث أصبح وعي ملايين الناس يهوداً وغير يهود عاجزاً عن التمييز بين الحقيقة والخيال «الميتافيزيقيا» بين ما هو صحيح وما هو مزيف تاريخياً فتدعي الصهيونية بأنها تمثل جميع يهود العالم وأنهم جميعاً أينما وجدوا يدينون بالولاء لها ويستجيبون لدعواتها دون تمييز، فهناك من يرفض إصباح التفسيرات القومية الضيقة على الديانة اليهودية وقيمها الأخلاقية بمدلولها الإنساني.

سمات الحياة الأدبية الإسرائيلية يشير النقاد إلى ثلاث سمات في الحياة الأدبية الإسرائيلية تؤكد ماهية الثقافة التي تجري ممارساتها بهدف خدمة الأيديولوجية الصهيونية. هذه السمات هي:

1 - هناك تدخل فظ في حرية التعبير الأدبي الإسرائيلي إذا جنح إلى مخالفة جوهر أهداف السلطة الإسرائيلية وهو أمر يمثل الجانب الضيق من عملية شاملة تستهدف تجنيد الأدياء الإسرائيليين من أجل العودة إلى مفاهيم السياسة الإسرائيلية ومرتكزات الفكر الصهيوني.

2 - الأدب العبري في إسرائيل يواكب أهداف السلطة وهو أداة في يدها لتحريك الجماهير اليهودية وهو أدب يحمل سمات الصنعة، والأدياء العبريون «أبواق السلطة الحاكمة والصهيونية هدفها إقناع القارئ العبري بأن ليس أمام العبري إلا الرضوخ لما تملبه عليه الصهيونية وأن العرب لا يفهمون إلا لغة القوة».

3 - هناك أدب يتحرك لخدمة الدعوة الصهيونية لما يسمى «بالقومية اليهودية» وارتباطها بفلسطين أرضاً وتاريخاً. وفقاً «للمبادئ التي قام قادة الحركة الصهيونية يخوضون على أساسها حملاتهم السياسية لتحقيق الأهداف الصهيونية» وقد عبر عن ماهية هذه الدعوة في إطارها الأدبي الكاتب الصهيوني «حاييم هزار» الذي شغل ذات مرة منصب رئيس اتحاد الكتاب العبريين حين قال «إن عنصرية الشعب اليهودي تكمن في ذاكرته التي ظلت تعي على امتداد عشرين قرناً كونه وحدة غير قابلة للتفتت» وحينما يقول هزار، هذا إنما يريد أن ينفذ منه دور الأديب الصهيوني وتحديده. أن هذا الدور يتحدد في العمل على تغذية الذاكرة الجماعية لدى أبناء الطوائف اليهودية وإثارة مشاعر الانتماء القومي الموهوم لديهم. والعزف على وتر العلاقة التاريخية التي تربط بين اليهودي والأرض الفلسطينية، وكما جاء في سفر ارميا «أيها الرب، رجاء إسرائيل كل الذين يتروكونك يخزون».

الأرض التاريخية ومعاداة السامية إن دراسة الوثائق الصهيونية وأفعال الحكومة الإسرائيلية تبينان لنا مفاتيح المذهب الصهيوني والذي هو مدون في نظريات وأفعال هرتزل ووايزمن وبين غوريون وغولدا مثير وقيادات صهيونية أخرى. ونستطيع أن نوجز مجمل آراءهم:

1 - أن العالم الخارجي اللايهودي هو عالم بطبيعته ضد السامية وسيلجأ هذا العالم أخيراً إما لتدمير اليهود وإما لامتصاصهم.
2 - لا مفر لكل اليهود في العالم من مغادرة أوطانهم التي يعيشون فيها «المنفى»! ويعودون إلى أرض إسرائيل الخاصة والمطلقة لهم. والهدف من العودة أحياء دولة داود وسليمان القديمة، بحدودها المقدسة وبلطيف العبارة فهذه الأرض وطن اليهود!

3 - في سبيل الحفاظ على نقاء العنصر اليهودي يجب طرد كل إنسان غير يهودي وإذا ما رفضوا فإنهم يجب أن يعيشوا تحت شروط سيكولوجية قادرة على خلق جدار منيع يفصل بين المجتمع المقدس والغريب وهذا تعبير مأخوذ من التوراة. ويحمل الازدراء والاستخفاف. من هنا تسلحت الصهيونية ومنذ البداية بطرق تشوه الوقائع التاريخية محاولة استخدام الحوادث الغابرة لخدمة أهدافها. لهذا يركز الصهاينة في وثائقهم ونشاطهم الدعائي على محاولة البرهان على حق اليهود في فلسطين كوطن تاريخي لهم طردوا منه بالقوة، وذاقوا الأمرين طيلة عدة قرون. ولكنهم ظلوا يحلمون بالعودة إلى هناك لهذا أتقنت الصهيونية كل دعوة لعداء اليهود لدفعهم للانغلاق والمحافظة على «الجوهر اليهودي» ثم دفعهم لتحقيق المآرب الصهيونية لإنجاز الوطن المزعوم وهنا باتت الهجرة والاستيطان ضروريين لتحقيق قيام إسرائيل على الأرض التاريخية المزعومة. ولقد أشار بيجين ذات مرة في برنامج الانتخابي إلى الهجرة وأهميتها للكيان الصهيوني قائلاً: «ستعمل الحكومة على تشجيع الهجرة باعتبارها على رأس الأولويات» من هذا المنطلق تم ذبح قرى بأكملها على الطريقة النازية وإصدار القوانين المساعدة للاستيلاء على الأرض. ووصم كل من ينتقد تصرفاتهم بصفة اللاسامية ورغبة إبادة اليهود.

وبما أن الظاهرة الأدبية الصهيونية ظاهرة مصطنعة لعدم وجود أدب يهودي بالمعنى العلمي لهذه الكلمة نظراً لأنه لا يغوص في العمق إنما يسير باتجاه السطح لغاية إعلامية تخدم أهدافاً سياسية في العصر الحاضر كما كانت في العصور الوسطى بينما كان هدفه قديماً خلق نوع من النزوع المتعالي بوجه الأحداث التاريخية والانضواء لاجترار تعاليم أثرت تأثيراً مباشراً على بنية اليهود السيكولوجية والفكرية

والإحياءات الدينية المستمرة ومنها انطلق تصور مشترك كحل لمشكلتهم باللجوء إلى «الجيتوات» فأدى ذلك بهم إلى العنصرية الشوفينية وبالتالي إلى توقفهم أمام تيارات التغيير ونواميس التطور. وتمثل رواية «العشب الأحمر يشتعل ببطء، النهر الأخضر يتدفق للأبد» للكاتب الصهيوني العنصري بنحاس سادية نموذجاً رمزياً للكتابة الأدبية الصهيونية فيها يحاول الكاتب بث توحيد صوته في نفس قارئه بالأرض العربية عبر مقولة «الأرض التاريخية» مستمداً رموزه والحدث في القصة من الموقف الراهن المباشر دون استخدام رموز تراثية أو خوض صريح فيما يسمى بالعلاقة التاريخية وتجسد الشخصيات الثلاثة الرئيسية في القصة ذلك البناء الفلسفي الذي تقوم عليه القصة والذي يرتبط بالشوق الصوتي للأرض والحلم التوراتي الذي يصوره أرض إسرائيل.
«قالت: شيء ما بداخلي يغني. لكن دون نعم . بماذا يغني؟
- إنه يغني هكذا... العشب الأحمر يشتعل ببطء، النهر الأخضر يتدفق للأبد.
- ماذا بعد ذلك؟
- ليس بعد ذلك شيء. فما قلته يتكرر... ويتكرر للأبد».



التوحد الصوفي بين الأرض والمستوطن

هذا هو التوحد الصوفي بين الأرض العربية والمستوطن الصهيوني الذي يحاول عبر أغنيته الاستحواذ عليها بصورة تزييف الواقع والحقائق التاريخية والتوحد هنا بين «افيجيل» الأرض. و«افشالوم» الشعب اليهودي الذي تصلها به وشيجة الدم كما يقول الكاتب الصهيوني، وهنا «التزييف الحقيقي في أبرز مظاهره» إذ أنه ينفي وجود الشعب العربي في صورة فاضحة لا تتمشى وحقائق التاريخ ويستمر ذلك ليقول: إنها «الأرض» محروسة منه بلا إرادة منها أو منه «أي أن العلاقة هنا قدرية تستحضر التراث اليهودي «لنسلك أعطي هذه الأرض».

ورغم مرور أحداث كثيفة أبعدت هذه العلاقة، إلا أنها لا تنتقل عنه، فصي أعماقها تتردد دائماً أغنية التوحد به، أغنية العشب الأحمر التي تدوي في باطنها رغم الأضواء والرياح الساخنة والدور القائمة الفارقة في السبات والمتداخلة في حروف اللغة العربية وهنا إشارة إلى الوجود العربي، الذي رفض الكاتب الصهيوني جذريته فنتعته باللون الباهت.

«عندما خرج افشالوم من الأزقة المتداخلة المتشابكة كحروف اللغة العربية. كانا قد وصلنا إلى سوق، محنة يهودا، المقفرة» هنا تخيلات أدبية لما يقال بصراحة في وصف حالة الأرض المقدسة عبر ما يسمى بسنوات النفي لليهود هي لا تياأس من عودة افشالوم فيها هي «الكراكي المهاجرة» طلائع الهجرة اليهودية تبشرها بقرب وصولها.

«مرت أسراب وأسراب من الكراكي متتابعة متلاحقة. كانت هذه الأسراب فيما يبدو قوام الجماعة المهاجرة الرئيس. أما ما كان قد ظهر منها قبل ذلك فلم يكن سوى طلائع للقوة الأساسية على فترات متباعدة كان يتردد صوت أشبه ببناء قصير. وفيما عدا هذا كان السكون مخيماً. من أسراب الكراكي ما كان صغيراً يضم خمسة أو ستة طيور ومنها ما كان يضم عشرين أو أكثر. غير أنهم جميعاً كانوا يتحركون على شكل رأسي صوب هدف لا يعيدون عنه» وهي صورة وضحاها بن غوريون في رسائله حينما قال «وفلسطين ليست إلا إحدى البلاد التي غزوها. يقصد العرب. أما أهل البلاد الأصليون فهم اليهود! وقد اعتبروها وطنهم عبر أجيال النفي والتشتت» وقد يكون الكاتب اعتمد على قول بن غوريون هذا فحرض في قصته على التسرع في الفعل وتكثيف الهجرة نحو الأرض

المقدسة التي يدعي - زورا - أنها لهم «الليلة.. الليلة أستطيع» هنا دعوة حقيقية للإسراع بهذا الفعل. «لاحت الدموع في عينيها.. أمسك وجهها بين يديه فأحس بمدى سخونة وجنتيها. أحس برائحة جلدها وشعرها المسكرة كانت شفتاها ترتعشان وعيناها المشرقتان تطفحان بتعبير من الأثم والرضا في نفس الوقت. وكانت بكل ما فيها بتلك اللحظات جزءاً من حلم» إنه يقارن هنا بين الوجود العربي وطلائع الغزو الصهيوني وارتباط ذلك بالأرض التي هي في حالة حلم وذبول بعينها المشرقتين تطفحان بتعبير من الأثم لوجودها تحت السارية العربية. والرضا لبدية الوجود اليهودي الذي باتت تحلم به.

«فجأة بدأت ترتعش أراد أن يطمئنهما فضمها إليه وجعل يداعب شعرها وكتفها العاريتين في رقة أحس بأنفاسها الحارة على وجهه وعنقه وسمعها تتمم بكلمات مختلفة. كلمات غريبة ربما قالتها في أوقات أخرى وطفقت على سطح ذاكرتها المضطربة» عله يشير هنا إلى الوجود العربي، وارتباط عرب فلسطين بلغتهم ودياناتهم وعاداتهم وتقاليدهم، ويعتبر ذلك دخيلاً عربياً على الأرض في فلسطين كما يصور الكاتب. لكن افشالوم «الشعب» وهو راقد بين اليقظة والنام تطالعه رؤيا التوحد بـ «افيجيل» التي التحقت بدار الدعارة وفقدت طهارتها لأنها تعيش في كنف العرب ويعيش افشالوم بأمل تطهرها من الدنس. ويتجسد هذا التطهر في دماؤها عندما تذبح لتبعث من جديد أي عندما تغسلها الدماء من آثار العرب. الكاتب الصهيوني سادية يدعو هذا صراحة لقتل العرب، يدعو للمذابح الجماعية التي بها وحدها سيطر اليهود على البلاد لتصبح الأرض ظاهرة خالصة للقادمين اليهود، وهو هنا يستحضر ما قام به «يوشع» عندما استطاع بالخديعة والمذابح الاستيلاء على «أريحا» من أهلها الكنعانيين العرب قبل آلاف السنين والذين لا زالوا يمارسونه حتى الآن باعتبار «أن الشعوب غير اليهودية خارج القانون» ويذكرنا هذا بحال بني إسرائيل بعد ظهور المسيح ثم بحال الذين دانوا باليهودية من الأقوام الأخرى. والذين صاروا غالبية اليهود وعاشوا في أوروبا الشرقية والوسطى فقد عاشوا في جو الأسفار وتلقيناتها ينظرون إلى غيرهم نظرة استعلاء وكيد وكره ومكر وشر. وخلال مسيرة «افشالوم» و«افيجيل» في الطريق الطويل نحو اللحظة المرجوة لتحقيق

الرؤيا يظهر لهما الشخص الغريب المفرغ، هذا الغريب «المقصود به العربي صاحب الأرض الحقيقي» يعترض المسيرة. ويظهر متلصصاً متربصاً في الظلام. «فجأة أفاق افيجيل» وهبت واقفة، جعلت تصيح السمع وراحت تنظر فيما حولها دون أن ترى شيئاً عدا بضع أشجار هنا وهناك، و«افشالوم» ينظر إليها مشدوها قالت في صوت خافت: أشعر أنه هنا.

. من؟ أنك مريضة بالأوهام يا افيجيل. . كلا... أنه يختبئ ربما خلف إحدى الأشجار. . سأبحث عنه... قال «افشالوم» وهو ينهض من مكانه.

ورغم التزوير الواضح للتاريخ لأن العربي لا يواجه في الظلام، إلا أن عنصرية الكاتب أثرت على رؤياه فأسقط ما يدور في نفس اليهود على العرب، فهم الذين يعملون في الظلام وهم الذين سرقوا فلسطين بالدسائس والتأمر. وصهيونيتهم هي التي جعلت دور الدين بالنسبة لليهود «يختلف عن دور الدين عند الشعوب الأخرى وذلك بهدف جعل الوجه الديني للحياة اليهودية مصدراً للوعي الصهيوني الذي هدف منذ قيام الصهيونية إلى استعمار فلسطين وما حولها» بأية طريقة وهذا لن يكون إلا بالقوة لقد ظلت هي العامل الأكبر في تأكيد المقولة الصهيونية «الأرض التاريخية» وبكل انعكاساتها على الأدب والأداء، فها هي الكاتبة الصهيونية «روث الموجي» تدعو في قصتها «كان يمكن شراء مدفع بهذا المال» «لاعتماد هذه القوة من وقت قريب وزعوا عندنا منحة مالية على الأدباء ألم يكن من الممكن شراء مدفع بهذا المال. يكفينا الخبز، عيش الغراب من الكماليات تماماً مثل الحلوى».

تدعو الكاتبة هنا إلى الحرب التي لا يمكن بدونها أن تتوحد بالأرض فالكاتبة «روث» في قصتها هي الأرض وميخائيل بطل القصة هو الشعب والأرض هي التي تطلبه وبأي ثمن للتوحد به وعبر جو جنسي يبرز هذا التوحد «كان في مقدوري أيضاً أن أقول له: أن الصلة الجسدية هي غالباً العدو رقم واحد ولأنها تؤدي بنا في الواقع إلى تحويل الحب» تحويل الحب من النظري إلى العملي، من الحياة في أوروبا وغيرها، من موطن اليهود إلى التوجه نحو فلسطين أي أنها تدعو لرفض الاندماج في المجتمعات الغربية والمواطن الأصلية لليهود. في قصته «لا لون للخوف» التي تتحدث عن الحرب للكاتب جدعون تلباز قد

يبدو للقارئ السطحي من تتبع أحداث القصة أن الكاتب يتألم للحرب وأنه يقف منها موقفاً راديكالياً. ولكن متبعاً لأحداث القصة يؤكد عكس ذلك. إذ أن الموقف الراديكالي والموضوعي للكاتب ومن الناحية الإنسانية على الأقل يتطلب توضيح حقوق الآخرين، والآخرين - الفلسطينيون - ولكن الكاتب لا يتطرق إلى ذلك. إنه يتألم للقتل اليهود الذين يذهبون للاعتداء على الغير لتحقيق مقولة الأرض التاريخية.

«كان الموت أسهل الطرق بالنسبة إليه وجدوه محترقاً ومختلطاً بجزيئات إحدى الدبابات كان من المستحيل معرفة أين تبدأ جثته وأين تنتهي جثة الدبابة لم يبق على أصله الأول سوى الأشلاء وقطع الصلب المغطاة بالتراب أما سائر الأشياء فكانت منتمية إلى الماضي. كالودودة المتحجرة أما الحاضر فقد كان الذباب، ذباب الجيل في بداية الوحشة النظيفة» ورغم الأثم الذي يبديه الكاتب للقتيل اليهودي إلا أنه يظهر إعجابه ببراعة الطيار اليهودي المقاتل الذي يلاحق الأعداء «الأغيار» الذين يقلقون اليهود ويظهر الكاتب بهذا المعنى فوقيته البغيضة وهو بهذا لا يخرج عن مقولات الصهيونية في تقوق العنصر اليهودي الذي يستعمر الأرض ويجلب لها الخير على حد زعمه «لن يجلب مجيئنا إلى غور بيسان أي ضرر على عرب المنطقة، العكس هو الصحيح» ويستدل الصهاينة على هذا بقول أحد الخونة قبل عام 1948 حسب ما أورد ذلك بعض الكتاب الصهاينة على لسان عربي من حوران: «إسمع.. أعمل في منطقتكم أكثر من سنة. وكذلك في منطقة حيفا وأرى التقدم وبناء البيوت عندكم وكل هذا بسبب الهجرة اليهودية إلى فلسطين بسبب المهاجرين الذين يبنون البيوت والحدائق، ومزارع الأبقار والشوارع والأرصفة إنهم بحاجة إلى العمل وكل عائلة يهودية تستوطن فلسطين تعيل ثلاث عائلات عربية، هذا هو سبب تقدمكم هنا. وعدم تقدمنا في حوران لأنه لا توجد عندنا هجرة يهودية».

هذه هي الصهيونية وهذا هو الاستيطان والغطرسة. عائلة يهودية تعيل ثلاث عائلات عربية، والعرب يرحبون باليهود في حوران «سوريا» وهذا كله لن يكون إلا بالقوة. يقول تلباز في نهاية قصته وبعدها اختضت جلبة المحرك من أذنيه وفتح الطيار عينيه واستقبلته أحضان حارة وربتات على الكنف وهو ينزل إلى الممر.

. هل لدى أحدكم سيجارة؟ سأل.

من كل جانب مدت إليه علب مفتوحة سحب سيجارة من إحداها وأشعلها له أحدهم جذب الطيار نفساً عميقاً ثم أطلق الدخان من زنتيه ثم ألقى السيجارة وداسها بقدمه. وما زال كل هذا غير حقيقي، ذلك أنه لم يبدأ في الإحساس بصلاية الأرض تحت قدميه إلا بعد الخطوة العاشرة» يعني ضرورة الاستمرار في القتل حتى النهاية!.

في قصة «ش.دوفين» بعنوان «مأخذ الشيطان على فاوست» نرى نموذجاً فنياً مركباً لأدب مقولة «معاداة السامية» ودفع اليهود للهجرة إلى الأرض التاريخية في جانبها الوصفي وإذ أن المعروف أن الشيطان في سفر أيوب يلعب دور الشر. والسفر من كتابات التأمل اليهودية المتناثرة بروح الحكمة والتفلسف اليوناني خلال فترة الحكم اليوناني في الشرق وهو يناقش مسألة الشر في العالم ويطرح تساؤلات محددة حول مبررات العذاب الإنساني الذي يلحق الأخيار من الناس، الشيطان في سفر أيوب يوعز إلى الرب لإنزال ضربات متلاحقة بأيوب لاختبار إيمانه لأن ذلك سيكشف زيف عقيدته ويستجيب الرب للشيطان وأمره بالتصرف «أبسط الآن يدك ومس عظمه ولحمه فإنه في وجهك يجذب عليك» هذا هو دور الشيطان في سفر أيوب دور محرض القوى السماوية العليا على إلقاء العذاب بالناس ودوره في مسرحية «فاوست» كما يفهمه كاتب القصة دور الشرير الذي يغوي البشر ليعرض عليهم ممارسة الشر والوقوع في الخطيئة. فما الدور الذي ينيطه كاتب القصة هنا بالشيطان؟

يوضح د. البحراوي في تحليله لهذه القصة «أن الكاتب أبرز الشيطان وجعل له دوراً أساسياً فيها فهو الراوية ومقدم التقارير للذات الإلهية وبرغم شروبه. إلا أن العذاب الذي أصاب اليهود جعله يرق لهم أي أن من يعذب اليهود أشد ضراوة من الشيطان نفسه!»

«يبدو الشيطان أكثر الجميع دهشة، إنه يحاول أن يجد من انفعالاته لا يد أنه سيثور مهرباً عن موقفه بوضوح غير أنه لعجب الجميع، فيما عدا النائب، لا يفعل لم يجد أمامه سوى النائب ولكن يبدو أن دهشته الكبيرة لم تكن بالقدر الكافي لإخراجه عن صمته.

سأل النائب عن الرجل الذي يتعذب من سنين في أوشفيتس قال النائب «أعني الرجل الذي لا يكف عن الاستشهاد بسفر أيوب». أي أن الكاتب يريد أن يقول لنا أن هناك العديد من المعتقلين في سجون النازي ورغم هذا لا يهمهم سوى اليهودي ذلك الذي «لا يكف عن الاستشهاد بسفر أيوب» أي التوراة وهنا محاولة رخيصة لغزو العقل الإنساني وشده للتعاطف مع اليهودي المسكين وإبراز الأناية التي يتميز بها اليهود وهذا يوضح احترام اليهود وعدم قتلهم أو اعتقالهم دون أي اعتبار إلى الآخرين، وفي أتون ذلك الموقف تبرز فوقية الكاتب وغطرسته لتتضح الثقافة العنصرية للشعب المختار!! الذي يميز بالبطولة الفذة، حتى الأطفال فيه يجابهون الألمان ويتخطون أسلاكهم الشائكة المنيعة وهذه لهجة «السوبر طفل» الإسرائيلي بكل تعاليها والتي تكثر في أعمال الكتاب الصهاينة مثل كرميلي وسروج وسيتير وغيرهم وقصة «ديندين» الطفل اليهودي

المقاتل الذي يهزم الأعداء في كل زمان ومكان»، في قصة «أنا مهاجر» يدعو أي.ش.ش. مأمور اليهود للعمل في فلسطين لخدمة الصهيونية.

«المهاجر هو اليهودي الذي يسافر إلى إسرائيل لتكريس حياته من أجل الوطن ومصالحه، عندما سمعت هذا التعريف تذكرت يهودياً كنت أعرفه عرف كلمة «حالتوس» رائد الهجرة - بأنه كتلة الحديد الخام الذي يخلق للوطن ما يحتاج إليه. لم يكن اسم ذلك اليهودي «ساشا» بالطبع وإن كان اسمه قريباً من هذا في جرسه «أوسيا» ترومبلدور وهنا دعوة للاقتداء بمن يسمون في الحركة الصهيونية بالرواد الأوائل ومنهم هذا المدعو «ترومبلدور» ومن جانب آخر دعوة لصهيئة اليهود الروس وعدم اندماجهم في مجتمعهم الروسي حيث ولدوا وعاشوا، لهذا يستحضر شخصية «ترومبلدور» الحالتوسي الأول «المهاجر» الذي حارب في روسيا وفي الشرق، وقد ذراعه وقرر أخيراً الذهاب إلى فلسطين للعمل والقتال فيها من أجل الصهيونية فهو «ساشا» الروسي، ولكنه استبدله بأوسيا ترومبلدور وهكذا تترجم مقولة الأرض التاريخية القاضية بحق الملكية المطلق للأرض العربية في فلسطين في شكل فني تتداخل فيه مقولة العدا للسامية الساعي للقضاء على اليهود مع الأرض التاريخية لليهود، واليهود وحدهم.

العنصرية والتفوق

الدور الذي لعبه الأدب الصهيوني على الصعيد الدولي لا يقل عن الدور السياسي الذي قام به رواد الصهيونية السياسية الأوائل، والأثر النفسي الذي أحدثته روايات وكتابات «بنسكرو» وهرتزل وأحد هاعام» الأدبية لا تقل أهمية عن كتاباتهم السياسية والأيدولوجية. لقد وقف الأدب السياسي الصهيوني أمام التسامح بقوة ومنذ البداية مقاوماً أي تطلع جدي لحل المشكلة اليهودية، ممارساً التزوير وقلب الحقائق ومركزاً على أحداث الماضي لتبرير أحداث مستحدثة ليتعدى ذلك الزمان وذلك المكان مثيراً عداة الشعوب بسلوكيته الشاذة على الصعيد العملي والنظري وإذا كان جام الغضب صب على العرب قديماً وحديثاً، فإنهم ركبو المركب تجاه الشعوب الأخرى فلم يسلم أحد من شعوب الأرض من سهامهم العنصرية المورثة ولما كان الأدب الصهيوني أدباً موجهاً فإنه بالتالي يعكس سياسة وفكراً وفلسفة تتبناها الصهيونية جميعها

وتعززها لتلعب دورها المرسوم والمخطط لها وتشكل فكرة التفوق أحد المكونات الأساسية للفكر الصهيوني والتفوق الذي يحدث عنه الصهاينة تفوق شامل بالإضافة إلى أنه أبدي أي أنه ليس مرهوناً بفترة زمنية معينة تمتد منذ صراع اليهود مع فرعون ودخول «يوشع بن نون» أريحا ووقوف اليهود ضد الرومان وحتى الحروب الحديثة بكل ما يرتبط بذلك من أساطير وخرافات قديمة وغطرسة وتزوير متعمد لتاريخ المنطقة، لأن ربط هذا التفوق بمرحلة تاريخية معينة يؤدي إلى حرمان الحركة الصهيونية من استثمار هذا المفهوم أيديولوجياً ومن أجل ذلك ترى الصهيونية أن ييجن مثلاً هو صهيوني نقي، فإن يكن المرء يهودياً يعني عند الصهاينة أنه متفوق بذاته ولذا يحسده الأغباء ويودون لو يزيحوه من طريقهم، فالذات اليهودية هي محور العالم ولا يهم أن يكون للأغباء أي نصيب، ويذكرنا هذا في الوقت نفسه بقول بن غوريون «لا يهمني ماذا يقول العالم بل اليهود». لأن الصهيونية في نظر اليهود جزء من إرادة السماء وأن اليهود قد توحدوا بالرب وأن الفرق بين اليهودي وغير اليهودي هو من النوع الذي ينطبق عليه التعبير السائد «لا وجه الشبه» فني حين يجلس اليهودي في المرتبة العليا وينحدر من الصنف الأسمى تقبى بقية الأمم من الدرك الأسفل وتتحد من أدنى صنف. وهكذا نرى أنه من العبث البحث عن وجه للشبه بينهما. وحسبما جاء في كتاب «هاجر» المقدس عندهم «فإن الجسد اليهودي يختلف كلياً عن أجساد بقية الشعوب وذلك من حيث أكلهم وشربهم وطينتهم وإن كنا نرى ثمة تشابهاً في الأجساد فما ذلك إلا في المظهر الخارجي فقط أما داخلياً فالفرق بينهم كبير إلى حد يجعل الجسد اليهودي لا يمت بأية صلة كانت إلى صنف بقية الأجساد لأبناء الأمم الأخرى وما يصح على الجسم «المادة» يصح أيضاً على النفس «الروح» إذ أن أصل أرواح بني إسرائيل هي من الروح المقدس ذاته، ولهذا فإن الانتصارات اليهودية الحديثة كما يرى الصهاينة «ليست فقط لأفضلية إسرائيلية بل للمميزات أخلاقية، أي أن في اليهود روحانية تميزهم وتجعلهم يتفوقون وينبغون أكثر من غيرهم» من هنا استتبعت مفاهيم سياسية، التعصب إحدى أبرز سماتها. كما تقول الشاعرة العنصرية الصهيونية «أنا جرينو» في إحدى قصائدها التي تتعالى فيها على العالم:

قالت لي أمي بأنني
ابنة لشعب غني بالسفار... والأغباء جهلة
حدثني أن أكون بالمقدمة
لأنني يهودية
قالت أمي «إنني ابنة شعب لا يقبل الضياع
واجبي مواصلة التدريب... درب أبي
لمواجهة الأغباء الأعداء
ولو كانوا كل العالم.

مقابل هذا الاستهزاء بالآخرين فإن هذا الأدب ما برح يضخم المميزات الذاتية المكونة لماهية الصهيوني. فهو باعث حضارة الأمم ودافع عجلة تقدم الشعوب وأساس المدنية. إن النظرية الصهيونية تعتبر بحق من أكثر النظريات الرجعية العنصرية الشوفينية خطراً على الفكر التقدمي العالمي وذلك من خلال جوهرها الذي ينم عن معاداة الشعوب في العالم أجمع لأن «المفاهيم» الفلسفية التي تعتمدها الصهيونية سلاحاً أيديولوجياً تكمن في جوهرها حقيقة العقيدة الدينية الوضعية الجامدة للديانة اليهودية وهي تتجلى في الأسطورة التي تتحدث عن اتحاد اليهود مع الله والاعتقاد باستثناء اليهود والرجعية المعتمدة في هذا الكيان لها طابع أكثر توسعاً وعمقاً ومن هنا كانت دعوات الصهيونية البحث عن أرض تضي صفه الشرعية لكيانها بأي وسيلة حتى ولو كان القتل والاعتصاب أساساً لها، في مقطع بارز للشاعر «جبرائيل اليشع» يظهر وضوح ما تكنه الحركة الصهيونية للإنسانية من كرهها هو يقول:

لا تطلب الغفران كقط ساعة النزو
هذا زمن الذئاب المغتصبة
لا التنسك والصومعة

هكذا استطاع المنظرون الصهاينة النفاذ إلى أعماق الفرد الصهيوني بالإيحاء المستمر بشبح الدياسورا «الشتات». وكان الأدب الوسيلة الممكنة لاقتحام نفوس اليهود والسيطرة على غرائزهم العدوانية فالأديب الصهيوني «حانوخ برطوف» يرى أن التغيير هو معرفة القتل والمشكلة هي مشكلة وجود يهودي. لكي يستطيع الوجود يتوجب عليه القتل، بهذا المنطق غمرت الكتب الأدبية أسواق الأرض المحتلة. وكلها تشيد بالجندي السوبرمان والجيش الذي لا يقهر في الوقت نفسه وبنفس القوة تحاول الحط من القدرات العربية وتتقصص من مبادئ الإنسانية وتراتها.

في قصة «البنوع» يفسر الكاتب الصهيوني «فشنر» أعمال أبطاله العدوانية في فلسطين بسبب الأعمال النازية في ألمانيا: اليهودي بات المفجوع بمقتل حبيبته سارة التي لقيت مصرعها على يد النازيين بقتل العرب ثأراً من الألمان «كان متعباً ولكنه أحس جسده خفيفاً بصورة لا تصدق واستدار نحو الدبابتين هذا من أجلك يا سارة من أجلك» وجوزيف في رواية لصوص الليل يمارس الإرهاب في فلسطين لماذا؟ لأن «دينا» قتلت في ألمانيا، أما إذا كان الكاتب مثالياً فقصدته ستضج بطولات خارقة وقدرة تفل الحديد، يمكن معها إدراجها ضمن الأساطير وقصة «ساعة واحدة لإستر» للكاتب الصهيوني «كونراد برمش» تسير بهذا الاتجاه.

في قصة «خربة خزعة» يورد القاص «يزهار سمولنسكي» أحاديث كثيرة ومتنوعة بين الجنود الإسرائيليين قبيل احتلال القرية وبعد احتلالها، ويمكن أن نفهم من هذه الأحاديث نفسية الجندي الإسرائيلي «البطل!!» ورأيه في العرب من النواحي النفسية والاجتماعية والثقافية فيدرك القارئ ماذا تضمه هذه الشخصية من شعور تجاه العرب.

مما لاشك فيه أن قصة «سمولنسكي» خربة خزعة هي صور متعددة انتزعها المؤلف مما وصل إليه من فظائع الحرب الفلسطينية وفيها تظهر آثار التربية الصهيونية للناشئة آنذاك وما حشدته فيهم من غطرسة وشعور بالتفوق والتسامي. والكاتب «عاموس عوز» في قصته «الرجل والأفعى» يبرر هذه الأعمال ضدهم فلقد جاء في قصته هذا النص: «البدوي يشم رائحة الضعف من بعيد فإذا لطفته بكلمة طيبة أو ابتسامه يهجم كالحیوان المفترس يحاول اغتصابك حتى أنتي هربت منه. أنا لا أرتجف من المياه الباردة بقدر ما ارتجف من الاشمزاز. ما أشد اسوداد أصابعه كيف أمسك بي من رقبتي فقط بالضرب وبالرفس هربت منه يجب أن أغتسل بالصابون» إن صورة العربي في هذه القصة كما رسمها «عوز» حالات صراع بين «الإنسان المتحضر الذي يمثله عادة اليهودي إبن الكيبوتس والطبيعة المهدة بالخطر وممثلوها هنا هم «بنات آوي العرب والجبالي».

إذن هل يحق لهؤلاء العرب، في رأي الصهاينة، الحياة؟ بالطبع لا، وهنا تكون البطولة هي القتل، والقتل فقط ومن يقتل هو البطل، فني قصيدة

«أبوناثان غيفن» تحت عنوان «عدت من إجازتي» يقول الشاعر القاتل:
يجب عليك أن تقتل
حين تعود وتقص على والدتك
أشياء كثيرة وجميلة
أشياء جميلة
لماذا القتال!!؟

لأن العربي حسب الأدباء الصهاينة لا يفهم سوى لغة واحدة، فهو يحترمك كلما عاملته بقسوة وفظاظة. القوة هي اللغة الوحيدة التي يجب أن يعامل بها، وإذا ما ارتفعت عنه القوة وعومل بليونته فإنه يعتقد أنك تخشاه فيتمرد، إذن فالعربي في نظر الكاتب العبري يجب أن لا يعامل عن طريق الندد للند وكثيراً ما نجد أن هذه العبارة في قصص الأدباء الصهاينة «إن العرب لا يحترمون جاراً ضعيفاً. ويضيف «يهودا أشربير» في قصته «القائد الأول ليهودا» اعتداءات العرب المتكررة صباحاً ومساءً على اليهود الذين يسكنون على الحدود بين يافا وتل أبيب بأنها تسلية يتسلى بها العرب «وكانهم ليسوا أصحاب قضية» وهنا إشارة إلى أنهم قتلة مهمهم الاعتداء فقط ويقول الكاتب: إن مجموعة من الشبان اليهود قرروا الانتقام ومهما كان الثمن. وفعلاً توقف اعتداء العرب بل وتقدموا بالشكوى إلى السلطات البريطانية، وهذا الرأي شائع بين اليهود في فلسطين المحتلة، فلقد أجرى «يوحنا بيرس» وهو أستاذ في جامعة تل أبيب استطلاعاً للرأي دل على شيوع هذه الفكرة بين أبناء الطوائف الشرقية بشكل خاص إذ أجاب 89% منهم بوجود مثل هذه الفكرة عن العرب، وتجدر الإشارة إلى أن كاتب القصة لم يذكر الأسباب الحقيقية التي حفزت العرب لقيام بهذا الهجوم سوى أنه كان انتقاماً للاعتداء على لص آثم «اللص هنا هو العربي» لم يذكر الكاتب لمن كانت هذه الكروم والمزارع وهنا تزوير حقيقي للتاريخ!! ويتبع شموئيل عجنون لإبراز هذا المعنى في قصته «من عدو إلى محب» أسلوباً رمزياً فهو يتحدث عن صراع مع الأيام ذلك الصراع الذي بدأ عندما نزل الكاتب في منطقة «تلبوت» إحدى ضواحي القدس حيث بنى خيمته فيها: «قبل أن تبني تلبوت كان يحكم كل البلاد ملك الرياح ووزرائه وعماله. رياح قوية تسكن في الجبل وفي السهل، والتل، والبراري وتعمل ما تشاء، وكان

البلاد أعطيت لها وحدها فقط» وتعرض الرياح سبيله وتسأله ماذا يفعل هناك فيجيب بأنه يتجول وتهزأ منه الرياح فتهب وتوقع الأذى به ويخيمته ولا يدع «عجنون» الأسى يتسرب إلى نفسه ويعود ليبنى بعزيمة ونشاط بيتاً قوياً ذا أساسات عميقة في المكان نفسه في «تلبوت» وتأتي الرياح فلا تستطيع هدم البيت بل تهدم ما حوله وتخربه ويقوم عجنون بزراعة الأرض وتأتي الرياح لتفعل فعلها من جديد ولكنها تقشل لأن الأشجار ضربت جذورها وصمدت أمام الرياح ومنذ ذلك الحين أصبحت الرياح تزور الدار بصورة مهذبة وكذلك تعرفت أنا عليها ومنذ ذلك الوقت أصبحنا أصدقاء». هذه القصة إشارة واضحة للصراع العربي الصهيوني بتسلسله التاريخي فالريح هم العرب وقفوا في وجه الهجرة الصهيونية المبكرة «الخيمة» لكن ازدياد هذه الهجرة وضرب الخيمة أوتادها بتكوين دولة الكيان الصهيوني أفضلت الفعل العربي فكانت هزيمة 1948 «الأشجار ضربت جذورها وصمدت أمام الرياح» فلم تستطع الرياح هدم الدار عندما صارت متينة الأساس قوية محاطة بأشجار عميقة الجذور، وأن هذه القوة غلبت العرب وفرضت عليهم أن يحبوا صاحب البيت «إشارة إلى السلام المبني على القوة الذي يجب على العرب الاقتناع به» لأن دبابات الجيش الإسرائيلي كما قال ديان «هي التي تأتي بالسلام» والأدب العبري يظهر العربي إنساناً مختلفاً لا يعرف كيف يتصرف وأنه بعيد عن الثقافة والتحضر. «فموشيه ستايبسكي» يؤكد «أن شروط النظافة والمحافظة على الصحة تكاد تكون منعقدة بين العرب» ويضيف «إن عادة الاستحمام تكاد تكون غير مألوفاً عندهم باستثناء غسل بعض أعضاء الجسم من أجل الصلاة والوضوء». ويدعي زورا أنه نقل عن امرأة أنها «أقسمت بالله أنها ولدت ستة أولاد دون أن يمس الماء جسدها» ولا يشعر «ستايبسكي» بالكذب عندما يقول إنه «لا يستبعد أن يبصق صانع القهوة في الفناجين كي ينظفها»، في قصته «بلاد بنات آوي» يوضح «عاموس عوز» على لسان شاب يهودي يدعى «متيتياهو» بعض تخيلات التي هي صورة مخيفة لسيل جارف من القذارة «جمهور قدر غامق اللون، يقشر القمل والبراغيث وله رائحة كريهة، والجوع والكرهية بسبب جفاف وجهه تتوقد عيونهم توقداً جنونياً». وقد امتدت هذه الأوصاف لتشكّل توجهاً



تربوياً لأطفال الصهاينة بكل ما يخلقه من شعور بالاستخفاف المهين بالعرب. ويرى علماء الاجتماع أن الإسقاط الذي يدفعه الصهاينة ويلصقونه بالعرب يدخل في إطار ما يعرف بالاتجاه العرقي والذي يقصد به «اتجاه يتبناه الشخص حيال بعض أو كل أعضاء جماعة عرقية بشرط أن يتأثر هذا الاتجاه بمعلومات مفترضة حيال الأفراد والجماعات».

وبناءً على ما سبق فإن القيم الصهيونية والتي تشكل معياراً لأصحابها وترتكز على مجموعة نظم من المعتقدات في جانبها الأدبي تتمثل في المضمون النوعي من الاتجاهات كحالة مركزية تحدد سلوك الأفراد في المجتمع الصهيوني ورغم أنه قد لا يعي الشخص القيم التي تشكل نسقه على المستوى الشعوري وبالتالي فإن التعبير الصريح عنها يكون مضللاً إلا أننا نرى في أعمال الصهاينة وبدون استثناء قوالب من العداة ثابتة ضد كل ما هو عربي كالخيانة والقذارة والتخلف أي الهمجية بشكل عام. إذن ينبغي أن ينتهي العربي المتوحش القذر ويبقى اليهودي المنتحضر والمسالم!! الذي يعمر المنطقة ويبقى عليها سمات حضارية رفيعة، هذا التزوير انعكاس لصفات اليهود «السلبية» الكثيرة أبرزه الكتاب العالميون فقد وصف تشوسر اليهودي بأنه يحمل صفات

سلبية مختلفة كالكائن وقاتل المسيح والمتوحش وغيرها. وقال مالرو في رواية يهودي مالطا: «إن اليهودي مسبب لانتشار الأوبئة» كما أطلق نفس الصفات على اليهود الأديب البريطاني وولتر سكوت وتكررت أسطورة شابلوك في رواية ايفينهو وفي رواية أولفرتويست لديكنز كما لسنا صورة اليهود عبر القناعات الثابتة في أعمال برايت وانتوني ترولوب وداموريا. وغيرهم وجاء بحث لروينجر بأن صفة اليهودي في الأدب الإنجليزي ظلت ثابتة لم تتغير وأن التفسير الذي طرأ عليها كان غير ذي أهمية وسيطرت عليها القوالب الثابتة ورغم هذا تحاول الصهيونية إسقاط صفاتها على العرب وفي محاولتها ترسيخ هذه الفكرة اصطدمت بمقاومة الشعب العربي الفلسطيني الذي لم تستطع أن تفتي وجوده كلية وأوقعتها هذا في تناقض حاولت تجاوزه من خلال تركيز دعايتها على شخصية العربي القذر الذي يتنازل عن أرضه راضياً. ومن الأمثلة على ذلك شخصية «رشيد بك» في كتاب هرتزل «الأرض القديمة الجديدة» التي ترحب بالمشروع الصهيوني بما يعني أن العربي لا يستحق هذه «الأرض القديمة الجديدة» التي ترحب بالمشروع الصهيوني بما يعني أن العربي لا يستحق هذه الأرض. وهذا ينسفه ما ورد في يوميات «يوسف فايس» مدير شعبة الأراضي والأحراش حول تخطيط

استقروا في هذا المكان لم ينتجوا في فلسطين أي شيء له أهمية بالرغم من قدسية البلاد لأديانهم»، وفي كتاب قواعد اللغة العبرية المقرر على مناهج الثانوية نقرأ عن العرب في صفحة 277: العرب سلبوا، وقتلوا.

ونقرأ عن اليهود في صفحة 117: «اليهود جلبوا الحضارة إلى الشرق الأوسط» وفي مقدمة كتاب دراسي أعده الدكتور «سفروني» ورد التأكيد على أن «شعب إسرائيل هو صفوة الشعوب كلها، وأكثر العناصر افتخاراً لأنه تكون عن طريق انتقاء الأفضل» وجاء في وصف العرب وتحديد طابعهم «هذا العنصر الغريب في البلاد بطينته والدخيل على رسالتها وتطلعاتها يعيش الآن فوق ترابها ويستغل خيراتها. ولا بد من أن نحاربه كما حاربنا من سبقه من الغزاة والأجانب الذين استولوا على البلاد في العهود الغابرة ونهبوا ثروتها» وبالتالي فهؤلاء العرب غرباء في العرف الصهيوني يجب طردهم أو قتلهم. وهذه حقيقة الفكرة الصهيونية.

في ملحق صحيفة «هآرتس» ينشر شاعر صهيوني يدعى «اكور» بتاريخ

1982/7/2 قصيدة له بعنوان «لو كنت قائداً لجيشنا الأسطورة» .. «لو كنت قائداً لمنطقة بيروت المحاصرة والمختقة لصرخت في وجه كل أولئك الذين يطالبون بإعادة المياه ويصرخون ويتألمون ويطلبون إعادة الدواء والطعام إلى المدينة المحاصرة».

ولا يتوقف «اكور» عند حد الصراخ فهو ذو مزاج مختلف وعمله يتطلب أكثر من ذلك، لكنه يطالب بأكثر من وسيلة «لو كنت قائداً لجيشنا العظيم لزرعت الموت والدمار في كل المزارع والشوارع في كل المساجد والكنائس».

فالفلسطينيون في نظره شعب زائد أو فائض عن حاجة البشرية لذا يجب إلغاؤه فلا وجود له في وطنه وهذا يذكر بمقولات منطري الصهاينة هرتزل وجابوتسكي كتجسيد قانون لأحد أبرز أشكال الصهيونية وهو العنصرية التي تقتضي فلسفتها القضاء على حقوق ووجود الأمم الأخرى. والشاعر هنا يتمص شخصية «يوشع» في تدميره لأريحا فيتحيل الدماء تسيل أمامه فيسعد المنظر لذا يطلب المزيد ليس للمحاربين بل لجميع أفراد الشعب. وهنا يمكن القول أن الأمثلة التي أوردناها تثبت بدون شك نظرة الأدب الصهيوني العنصري ضد العرب بما يتناهى مع الدور الإنساني الذي يستحق الحصول

على جائزة «نوبل» فهو أدب ميكافيللي بكل أبعاده تخلى عن واجبات الأدب الضرورية «الحق، والخير، والجمال» وأثار الالتصاق بالنتورة التي جعلت مفهوم المطلق والجوهر في خدمة الأخبار وبالتالي فقد جاء أدباً مصطنعاً يرشح بالكراهية والحقد إلى أبعد الحدود.

البراءة الزائفة والأحزان الموضوعية

يقع دارس الأدب العبري أسيراً لحالة من الحيرة والدهشة لدى اطلاعه على اتجاهات هذا الأدب بعد حرب أكتوبر 1973 ومحاولة إيجاد علاقة انعكاس وتأثر تربط بين الاتجاهات العامة في هذا الأدب وبين التغيرات التي أحدثتها الحرب فلقد لحقت بالنموذج الفكري الصهيوني الذي يصوغ الموقف من العرب والأرض العربية ارتفاعه أثارت موجة المراجعات الفكرية فبدأت تظهر في المصادر الصهيونية تأملات فلسفية تطرح أسئلة من نوع «هل كانت الأيديولوجية الصهيونية في أساسها أيديولوجية عنف وأنانية قومية أم كانت أيديولوجية تسعى إلى العدل وتتشد التفاهم مع شعوب العالم بما في ذلك الشعوب العربية؟! وراحت تطرح توصيفات للوضع الأيديولوجي السائد قال عنه أحد الصهاينة «أنا لا اعتقد أن دولة إسرائيل أو الصهيونية جواب شاف على قضية الشعب اليهودي».

من تحليلنا لنصوص ما بعد حرب أكتوبر نرى الاستجابة الأدبية الصهيونية وما تلاها من ارتعاشات في قاعدة المقولات الزائفة بمثابة إضافات كمية لم تبلغ القدر الكافي لإحداث تحول كفي في أوضاع الحياة الإسرائيلية سواء في مستوى الوجود المادي أو مستوى الوعي فيها. أصبحت المقولات الصهيونية بين مد وجزر ترتبط بالعلاقة الجدلية بين الرفض العربي وحلم القبول بها.

ومن هنا استمرت في الأدب الإسرائيلي حتى الآن تلك الاستجابة المكونة من شعبتين «شعبة التأمل والتوجع الموضوعي، وشعبة البراءة الزائفة في تفسير ما حدث في إطار المقولات الصهيونية والأدب تعبيرات وأحاسيس ذاتية وانعكاسات للمجتمع على نفس الأديب الذي يتكلم لغته ويحيا ظروفه. ومعاناة الأديب جزء من معاناة الجمهور ولكن الإضاءات الإنسانية مفقودة في النتائج الأدبية الصهيونية فهي إما إسقاطات مرضية تستهزئ بقيم الغير أو انضواء واجترار لتواريخ معينة، إنها أكثر تجسيدا لمعاناة المستوطن.

بناءً على ما سبق أو المفترض على الأقل أن تكتسب صورة العربي في الرؤية الأدبية ملامح مختلفة فلا يعود ذلك القاتل المتعطش للدم اليهودي دون دافع سوى غريزة معاداة السامية، وأن تتغير بالتالي في هذه الرؤية صورة المحارب الإسرائيلي ذلك الإنسان «المسلم» الذي يضطر إلى القتال والبلاء المجيد فيه ضد موجة الخطر الجديد الذي بثه العرب، في قصيدة «الحرب المقبلة» للشاعر الصهيوني «يعقوب باسار» التي كتبت عام 1962 يتصور القارئ أن الشاعر رافض للمقولات الصهيونية وأنه متمرد ضد أصول السياسة الصهيونية:

وفي قاع العيون جملان في لون الليل البهيم

يرشف كلاهما من قمم الآخر

مياه الربح الخضراء

ذلك لأننا نستتبت في تأن وثقة

زهرات الحديد في الحرب المقبلة

ما بين حجرات النوم وحجرات الأولاد

إذا ما تبهنا إلى هذه الفقرة من القصيدة

وإلى صورة الجميلين الأسودين اللذين يتبادلان

الحقد ويرشف كل منهما من الآخر مياه العرب

لاكتشفنا أن الرؤية التي تحكم الشاعر رؤية

موضعية لا تتجاوز الاستجابة لوقع الآلام التي

تأمل أصول الصراع ودوافع إثارته فليس

الجمالان سوى طرفي الصراع والشاعر يختار

رمز الجمل للإشارة إلى كل منهما على أساس

تصوره أن العرب الساميين المنحدرين من أصول

صحراوية لا يجابهون اليوم سوى العبريين

الساميين المنحدرين من نفس الأصول. من جانب

آخر أستطيع الادعاء بل التأكيد بأن عنصرية

الشاعر وارتباطاته الأيديولوجية الصهيونية

تبرز في التعبير المستلهم من الصحراء بمعنى

ارتباط اليهود بهذه المنطقة وجذريتهم فيها،

وهذا تزوير للتاريخ فالوجود اليهودي في المنطقة

كان عابراً ولفترة قصيرة جداً ليس لها وزنها

بالمطلق في التاريخ وهذا يلغي بالطبع تعريف

الصهيونية للقومية اليهودية القائل بعدم

تجريدها من الأرض. لأنه لو تم ذلك لكان هذا

قضاء على طابعها المميز الذي يستهدف الوجود

العربي كله ومع ما في طرح الشاعر الصهيوني

من خطأ تاريخي حيث أن الصهيونية ليست

تعبيراً عن امتداد سامي سلالياً أو حضارياً أو

عرقياً، فإن الشاعر رغم براءته الزائفة ينتصر

لهذه الصهيونية، فهو في كونه وضع الطرفين في

وضع متساو «الجمالان» فكلاهما يبادل الآخر

الحقد والرعب. لكن عدم توضيح الشاعر من المعتدي عليه يجعل حزنه موضعياً دون أن يشير إلى الطرف صاحب المسؤولية في ذلك ويحاول الشاعر الإيهامي أن يلبس جلد حمل ويربض براءته وأنه ضد الحرب والقتل، ولكن ليس كل القتل فهو يحزن لقتل الصهاينة فقط لأنه يزور التاريخ بإبراز أن أرض الشعب الفلسطيني له.

وضع الأقلية العربية الصعب

في دراسة أجراها أحد أساتذة الاجتماع في فلسطين المحتلة على طلاب المدارس الابتدائية خرج بالنتيجة التي تقول أن 60% من 1066 طالباً قابلهم في مقابلات مفتوحة وتتراوح أعمارهم بين 9 . 14 سنة أيدوا الإفتاء الكلي للعرب المدنيين المقيمين في إسرائيل في حالة أي صراع مسلح مع الدول العربية وفي مثل هذا الجو النفسي يمكننا أن نتصور الجو الإيهامي الخائق الذي تعيش فيه الأقلية العربية في فلسطين المحتلة. والرغبة في الإفتاء التام ليس مجرد تفكير صبياني بل عقيدة. وليس أدل على ذلك من أن الصهاينة يعتبرون مرتكب مجزرة الحرم الإبراهيمي من الشهداء والقديسين.

وتقوم حرب أكتوبر ويتحرك الأدباء الصهاينة لإبراز براءة الذئب الصهيوني ويصبح السلام مخرجاً، ولكن أي سلام هو المرغوب. الشاعرة الصهيونية «حدها مراكبي» تبين ذلك فتقول:

لذا... فإني أقول

الحزن هو مجرد حزن والألم ليس سوى الألم

حتى الجبال يمكن تحريكها

رغم قدرتها على الرفض

تريد الشاعرة أن تحرك الجبال العربية وترزحها لتتسنى لها حياة هادئة مع رجلها على حساب الآخرين.

في قصيدة تحمل عنوان «أغاني أرض صهيون» كتبها الشاعر يهودا عيمحي عام 1974 يمزج الشاعر بين الآلام الصهيونية المدعاة وضرورة إنهاء هذه الآلام عن طريق الاستيلاء على الأرض العربية «والاحتفاظ بأرض فلسطين عام 1948» مبرزاً مقولة أحد المستوطنين الأوائل «ترومبلدور» بشكل إيجائي ليتبين ضرورة التمسك بذلك. وهذه القصيدة تتميز بتركيب الرؤية والبناء الشعري فهي تقدم المقولات الصهيونية في حالة التشابك والاتساق الهندسي الداخلي. وهذه هي حالة المقولات في نسقها الفلسفي:

لعل الكلمات الأخيرة التي لفظها «ترومبلدور»

ما أحلى الموت في سبيل أرضنا بنو الوطن الجديد

مثل نخل الحقل في مجموعات مجنونة

حتى ولو لم تكن هذه كلماته

أو أنه قالها ثم اختفت

لظل مكانها محفوراً كالخهف

فاق الملاط والأحجار صلابه

هذا هو وطني

الشاعر هنا يجتر قول «هرتزل» عن الدولة المرتجاة «اللاتينية» على قاعدة التمسك بالأرض حيث يدعى أن اليهود هم الذين عمروها فهي صحراء بدونهم ومقفرة بدون جهودهم وهنا ترديد غير مباشر لمقولة «شعب بلا أرض لأرض بلا شعب» بكل ما فيها من زيف وتضليل وخداع وتأمر.

الوطن المتعين الذي يراه الصهاينة والذي اكتسب ملاط بنائه صلابه وتماسكاً يفوقان صلابه وتماسك الأحجار «مقولة الأرض التاريخية المزروجة بالوجود اليهودي الكلي» حيث يمارس اليهودي حياته العادية على حساب الآخرين بالاستبسال حتى الموت لأن كنوز هذه الأرض «فلسطين» فليست من المعادن الطبيعية بل من عظام الموتى اليهود الذين قاتلوا في سبيلها ليحققوا لها الوصول إلى عصر «المسحاء». «عصر الخلاص اليهودي المطلق» الأمر الذي يعني أن الطرف الآخر في المواجهة ليس سوى ذلك العدو اللاسامي الذي يحاول أن يقطع طريق شعب في النزواج مع أرضه. وهذه ليست سوى نفس الرؤية التي تفص بها المقولات الصهيونية.

بعد حرب 1967 ومروراً حتى الانتفاضة الفلسطينية 1987 انبثقت عن الأدب الصهيوني تطلعات وتوجهات متباينة حسب الظروف والمتغيرات، فهي تدعو للاغتصاب والقتل بعد كل انتصار صهيوني وتدعو إلى السلام المزيف مغلفة ببراءة غير حقيقية تعتمد على الإحباط الذي يعانیه المستوطنون الصهاينة فيجترنون آمهم دون أن يتخلوا تماماً عن المقولات الصهيونية، ويمكننا رصد حركة تأثر المعنويات وملاحظة الحالة النفسية الصهيونية المنعكسة على الأدب بعد الانطلاق للانتفاضة المظفرة في فلسطين والتي يسفح بها الأطفال بقوة الغطرسة الصهيونية. فما هي الدلائل تؤكد مدى تأثير القدرات النضالية للأجيال الفلسطينية الجديدة مما خلق في الجانب الصهيوني انتكاسه حقيقة.

فالحجارة تزداد معها الآلام، فتذكر بالآلام

القديمة وقد رسمت الشاعرة «أنا نجريون» مسيرة هذه الأزمة النفسية في قصيدة لها بعنوان «البداية» تقول فيها:

وقرضت أشعار نحيب متعددة

حتى لم يبق لي ما أقوله

إذن هنا حالة نفسية متأزمة. قرف من القتل المتبادل، وقتل الأطفال. لكن دون التخلي عن جوهر الصهيونية. ونرى هذا بوضوح في قصيدة الشاعرة الصهيونية «داليا راينوفتش»، في قصيدة لها بعنوان «حجارة» تقول فيها:

بين اعتقال واعتقال

وربما ضربة هراوة

وربما رأس مجروح ويد مكسورة

كل شيء جائز بالنسبة لهم

أيها الأولاد. الأولاد. الأولاد

عودوا إلى البيت أيها الأولاد

كيف ستعيشون بلا استراحة

ماذا تريد الشاعرة أن تقول؟ هل هي تتألم هنا من أجل الأطفال الفلسطينيين؟ يبدو أن الأمر كذلك إذا نظرنا إلى القصيدة نظرة سطحية لكننا إذا ما تعمقنا في بنيانها الداخلي نجد أنها تستبق الأحداث فترثي وجود الكيان برتمته. فلقد أصبحت الانتفاضة هاجساً مرعباً لكل الأجنحة الصهيونية بل «دقت طبول القبيلة في نفوس أولئك الذين كانوا يقولون عن أنفسهم أنهم تقدميون ومتنورون».

إذن فالشاعرة تدعو الأطفال ليستكينوا حتى لا يصابوا بالجراح. وتلتقي أجسامهم الغضة مع الهراوات الغليظة لجنود الاحتلال. وكان أجدر بالشاعرة أن تدعو إلى انسحاب هؤلاء الجنود بل وإلى تقويض المجتمع الصهيوني إذا كانت تدعي التقدمية والإنسانية وهذا لا يمكن أن يكون إلا إذا فرغ اليهودي من صهيونيته فهل يحدث هذا؟! بالطبع لا يمكن لأن الصهيونية مرتبط بالتوراة والأفكار التلمودية التي هي أساسها وبالتالي فإن الشاعرة تعالج إذن ظاهرة مجتزأة من سياقها الاجتماعي والسياسي وكأن الأمر يتعلق بلعبة خطيرة يمارسها الأطفال على حساب العودة إلى البيت والاستراحة ولكن أي بيت؟! وأية استراحة؟!

قصة الأسير

لا شك أن قصة الأسير من أشهر قصص البراءة الزائفة «ليزهار سمولنسكي» تتحدث عن راع عربي يدعى «حسن أحمد» هذه القصة

أسرته فرقة عسكرية صهيونية بينما كان يجلس تحت شجرة متقيماً ظلها في يوم صيف قانظ ويرقب قطع أغنامه باطمئنان ويوضح الكاتب كيف كانت المعاملة سيئة «شتم، إهانات، ضرب، سخرية» وتوضح القصة الصراع النفسي عند الجندي الذي طلب منه نقل الأسير إلى معسكر قريب. هذا الصراع المتماوج بين الواجب والإنسانية الجندي يخاطب نفسه في حوار داخلي: «يجب أن توقف السيارة وتطلق سراح هذا الأسير، وهكذا ستكون النهاية نهاية مختلفة». لكنه يصحوا إلى نفسه ويتساءل: «كيف أستطيع ليس الأمر في يدي.. لا.. لا.. هذا غير صحيح لست صاحب الأمر أنا مجرد رجل ينفذ الأوامر وليس على ذنب فيما أصابه».

«سمولنسكي» في هذه القصة يريد أن يضرب عصفورين بحجر يغذي القارئ بالقيم الإنسانية للدعاية الصهيونية والتمسك بالواجبات العسكرية في وقت واحد وإن كان في نهاية الأمر قد رجح الدافع العسكري على الروح الإنسانية. من جانب آخر نجد أن سمولنسكي الذي يدعى الإنسانية لم يستطع أن ينزع من نفسه صفة التعالي التي أصبحت طابعاً عاماً في الأدب العبري فاختر للقصة بطلاً ساذجاً «عربي طبعاً» الأمر الذي يظهر كثيراً في الأدب العبري.

عن هذه القصة يقول غسان كنفاني «إنها محاولة لتصوير ما تردده وسائل الإعلام عن البطولات اليهودية الخارقة، إن البطل العربي في القصة ما زال يختار بعناية ودقة ليؤدي دوره في الموزاييك الصهيوني إنه تقريباً، بهلول «ساذج» فتمة حرب وهو خارجها تماماً وبكلمة أخرى إنه العربي غير القادر على مواجهة خصمه!» أما الدكتور «حياة جاسم» فتقول عنها: «لم يكن هناك شر في العالم يحذر من شرور آتية».

وبشكل عام فإن سمولنسكي يوجه النقد لأصحاب الادعاءات الصهيونية ولكن هذا التجاوب مع العقلانية لا يغير صورة العربي عنده فهو عدو لا يزال جباناً وأخرق أمام شجاعة الصهيوني. وبوسع جندي صهيوني واحد أن يعبت بمجموعة من الجنود العرب ويسخر منهم والأسير العربي هنا يستدر عطف الكاتب لسذاجته لا لعدالة قضيته. إن تجاوبه مع الشخصية العربية تجاوب ظاهري وسلبى ولا يخرج عن دائرة الولاء للصهيونية، سمولنسكي يعاني صراعاً مبريراً لإطلاق سراح الأسير العربي ولكن ولاءه للصهيونية. يتغلب على نداء العدالة

يأتي الجندي إلى أحد المغاور في تلك المنطقة فيجد عربياً مسلحاً ولكن هذا العربي سرعان ما يلقي بندقيته. ويبدأ بالتوسل إلى الجندي الإسرائيلي ويصل به الأمر إلى تقبيل قدميه كي لا يقتله. وأخذ يزعم في توسله أنه يحب اليهود وتستمر القصة «وعندما كنا جالسين نهض إبراهيم فجأة وأخذ يركض ولكنه اصطدم بالشجرة وسقط وأمسكت بالعوزي «البندقية» لكي أفعل شيئاً بهذا العربي. فجأة رأيت أفعى سامة».

رغم أن الكاتب هنا يود أن يلمح بأن هذا العربي قد لا يكون جيداً فقد يكون نافعاً. إذ أنه حاول إنقاذ اليهودي من الأفعى. إلا أنه «الكاتب» لم يستطع أن يهضم ذلك في عقله الباطن فأظهر فوقيته وعنصريته وكأن هذا العربي شيء مهمل كأى جماد مثلاً «وأمسكت بالعوزي لأفعل شيئاً ما بهذا العربي «أي رغم الموقف الذي يبدو إنسانياً في هذه القصة إلا أن الكاتب لم يتحرر من نزعة سادية نحو العرب كأن يهوى الأسير العربي نحو قدمي الجندي يقبلهما، ويعلق أحد الكتاب على هذه القصة فيقول «أنه من جهة واحدة يصعب على الكاتب أن يعامل الأسير معاملة إنسان يبدو له أن هذا الإنسان بدون صفات إنسانية أنه مجرد حيوان».

وهكذا تقتض البراءة الصهيونية والأحزان الموضوعية لبعض الكتاب لكن صهيونيتهم تدفعهم في النهاية للانتصار لتربيتهم الفوقية وغطرستهم ضد العرب فهم إنسانيون مع اليهود فقط. أما العرب الجهلة فلا داعي لذلك.

كتبت الروائية الإنجليزية ماري إيجورت عام 1817 رواية بعنوان «هارنجتون» قدمت فيها شخصية يهودية تتمتع بصفات طيبة. إلا أن الكاتب الصهيوني «بنامين دزرائيلي» يرد عليها بروايته «دافيد أوري» عام 1833 باعطاء بطله الصفات التي امتازت بها الصهيونية: العنف، العنصرية، العظمة والإيمان برب الجنود بهدف إيقاظ الشعور القومي الحربي لدى اليهود، كي يتذكروا ذلك الرب المحارب الذي كان يقاتل مهمهم في حروبهم ومجازرهم في فلسطين. إن إعادة التذكير «برب الجنود» من شأنه أن يثير تلك الفتنة المحاربة التي لم تعرف في حياتها الاستقرار. إلا من خلال الحرب ضد الشعوب أو من خلال الخضوع والسبي. وهذا ما لاحظناه في تاريخ بني إسرائيل واليهود ومنهم المقهورين الذين تبناوا هذه العقائد ليكونوا محاربين وليكون

في نفسه فيرسل الأسير العربي إلى حتفه وهو ما ينسحب على معظم أعمال سمولنسكي ففي قصته «خربة خزعة» التي يتحدث فيها عن قرية عربية احتلتها فرقة من الجنود الإسرائيليين عام 1948 في هذه القصة يدور حوار بين الكاتب ومجموعة من الأفراد اللذين يؤمنون بأرائه من جهة وجماعة أخرى من الجنود ممن يؤيدون الحرب والاحتلال والطرده والقتل. من جهة أخرى ومن ثانياً القصة يصور الكاتب مختلف الآراء تجاه العرب لدى فئات متعددة من الإسرائيليين يقول «سمولنسكي»:

«وشاهدنا امرأة عربية مع بعض رفيقاتها وكانت تمسك بإحدى يديها ولداً في السابعة من عمره» هذه النزعة الإنسانية ينسها سمولنسكي تماماً عندما يكرر في ثناياها الإشارة المستمرة إلى ما حل باليهود في العهد النازي ويدعى أنه خجل أمام المرأة العربية «لقد شعرت بالخجل أمامها وأشحت بنظري عنها ولقد رأينا فيها امرأة لبؤة. عبرت تقاطيع وجهها عن صبر واحتمال أنها مستعدة لتحمل المشاق. وتأتي أن تتهار أمامنا على الرغم مما حل بها ولقد لمسنا ما يعتمل في نفس طفلها أن تقاطيع وجهه تدل على ما سيكون في المستقبل، الطفل الضعيف الذي لا يستطيع غير البكاء سيكون أفعى سامة».

ادعاءات إنسانية زائفة

عجيب أمر سمولنسكي الذي يدعى الإنسانية أنه لا يريد الطفل الذي سيصبح رجلاً أن يقاتل الذين انتزعوا أرضه، ويواصل سمولنسكي في قصته القول «وبعد قليل تحركت السيارة الثالثة. أي جمود يسيطر علينا وأية لا مبالاة كأننا لم نكن لاجئين أبداً وكأننا مهاجرون فقط لكن ما هو المخرج؟!» سمولنسكي هنا يدعى أنه ضد التهجير وطرده الفلسطينيين لكنه لا يقدم على عمل يمنع ذلك سوى أن يذهب إلى النازحين ويقول لهم عودوا إلى بيوتكم ولكنه لم يفعل هذا إذن ما الفائدة من سرد هذه الأفكار وما فائدة وقوفه مكتوف اليدين. إنها البراءة التي تظهر زيفها إذ أنه لا يختلف مع معارضيه ولعله شاء أم أبى، شريكهم في عملية التهجير في قصة «على حد رصاص» بقلم «يتسحاق أوربان» نجد فكرة مشابهة للفكرة التي أوردها سمولنسكي في «الأسير» غير أن أحداث القصة كتبت بعد حرب سيناء عام 1956. وهي كذلك تدور حول حياة جندي عمل في قطاع غزة وفي سياق هذه القصة

اله الحرب ورب الجنود متناسباً مع تطلعاتهم الحربية والعسكرية إن هذا التعلق المنسي لا بد أن يثير اليهود ويستثيرهم للقفز مرة أخرى والتحفز للعدوان. إذن فالاغتصاب والقهر والاضطهاد تشكل جوهر الفكر الصهيوني ومنطلقاته الأساسية «فالذئاب» سادة الأرض لا الإنسانون المتسامحون. ولا غرو في ذلك فسلسلة تاريخهم تروي تعطشهم للدواء حتى إذا لم يجدوا من يقتلونه أسقطوا حقدهم على أنفسهم إلى درجة وصلوا بها إلى قتل أنبيائهم. في زيارة لها لمنطقة الجليل تتوقف «جولدا مثير» فجأة. وتترجل من سيارتها أمام شاخصة تشير إلى اسم قرية عربية. كتب عليها الاسم بالعبرية والعربية فتأمر مرافقيها بحزم بطمس الاسم المكتوب بالعربية وإبقاء الكتابة العبرية قائلة: «لا مكان للعرب أو العربية في دولة اليهود» وهذا يوضح أن كل ما هو عربي مكروه عند اليهود، أو غريب غير مفهوم. وإسرائيل محاطة بدائرة كبيرة من الظلام وهذه الدائرة الخارجية هم العرب بلا ريب وهي تحارب الدائرة الداخلية المشعة بالنور أي إسرائيل بمعنى أن إسرائيل هي الممثل للحضارة في الشرق العربي، وما العرب إلا أعداء الحضارة الإنسانية وهكذا كان النفاذ إلى أعماق الفرد الصهيوني، وكان الأدب الوسيلة الممكنة لاقتحام نفوس اليهود والسيطرة على غرائزهم العدوانية. فالأديب الصهيوني «حانوخ برطوف» يرى أن «الوجود الصهيوني لكي يستطيع البقاء «موشيه شامير» أهداف الأدب الصهيوني في المرحلة السابقة، فكان البطل فيه عاملاً ضد الظلم النازي عبر صور لا تخلو من الغزل وما هو الشاعر «شمعون هالكن» يناجي هذا البطل وأمثاله فيقول:

هلا كنتم كالتقدماء تحدياً
يا حراس المزامير المقدسة
وليكن بعدها ما يكون
أنتم يا أحرار الجيتو تخلفون الأغيار
وراءكم في المحيطات
ومهما تريدون يكون
تتعلمون منذ الصغر
القطاف من الأمم وليكن ما يكون...
فهذا طريقنا ليس إلا...

البطل في الأدب الإسرائيلي

يأتي دور البطل الصهيوني في رفض الاندماج

الذي لا يرضي التركيب العضوي للبنية الصهيونية والعقل الصهيوني المتزمت، ولقد وضع «هس» ذلك حين قال: «وقد يصبح اليهودي مواطناً في بلد يأخذ جنسيته، لكنه لن يقنع الأغيار أبداً بانفصاله عن قوميته» وهذه كانت وظيفة الأدب: زرع بذور الأفكار والرغبات الجديدة التي بدأت تأخذ فاعليتها بالعداء للألمان، وهنا يصبح الأدب الصهيوني دون رسالة تخدم البشرية. بل هو منظومة من النتائجات يمكن إدراجها تحت اسم «الأدب العنصري» الذي يحمل بين طياته الازدراء للأخرين والدعوة إلى العنف والاضغاث واحتقار الشعوب صراحةً، ويتضح هذا العداء للشعوب في قصيدة نشرتها صحيفة «دافار»:

ليل الألمان طويل ونور عمرهم ضئيل
فتحن خالقو ألمانيا بيد حديدية فتية
ونحن قادرون على صنع نعشها بلا اعتراض
أرض ألمانيا طوع يدنا وروحها ترتعد
بعد الجيروت كأس ستجرعه مراراً
وهنا تظهر صورة البطل الصهيوني بقدر ما لديه من رغبة في الانتقام. فهو عادة مجازف وخارق لا يعرف الشفقة ولا يملك حساً أخلاقياً أو إنسانياً بل صوراً وكوايس تسيطر على قواه العقلية ناتجة عما سمع به من مجازر لحقت باليهودي وتدفعه لاتخاذ الموقف ذاته ضد العرب إلا أن هذه الرؤيا وهذا المنطق يحتم على الكاتب تبرير التزام أبطاله لهذه الأخلاقية وهو الذي يدعي أنه عانى أهوال المعتقلات والإبادة مما يدفعه للوقوع في التناقضات. لذا يصبح هذا البطل على رأي «بياليك»:
لا يقيم صداقات فإنته الأثم
والقلب يضم العواصف
والعاصفة دم.

هذا القلب الصهيوني هو الذي انتزع شعر العربية الفلسطينية «خديجة» وهو الذي سحق السجناء في «كفارونا» وقام بالعديد من المذابح، ويسحق البيوت كل يوم على قاعدة أن إسرائيل «هي أرض لنا». والعرب الذين يعيشون فيها إذا ضايقونا نظردهم، ولورجعنا إلى ما كتب «دايان» عام 1967 نرى أشكال الأدب الصهيوني كما ركز على إبراز الشخصية الإسرائيلية المحاربة وكأنها «السوبرمان» الذي لا يخبتى ولا يؤسر لا يهرب، وقد تراود الشاعر بعض الأفكار هنا أو هناك ولكن بطله دائماً يحب القتل. فما هو يوضح ذلك بقوله:

أرى العيون الميتة الصامتة
أرى حكمة الدولة
حكمة الحرب في أفواه المجانين
الحساب سنجرية فيما بعد

أما الآن فأنا القاتل
قد يعتقد قارئ هذا النص أن الشاعر يحتج على القتل ويدعو لحاسبة الطغمة العسكرية المحركة للسياسة الصهيونية ولكن يتناسى أنه شارك في القتل. وكان يستطيع أن يرفض المشاركة برفض قتل الأبرياء ولكن عنصريته أبت عليه ذلك.

«مناحيم بيجين» كان طموحاً لتثبيت قيادته عبر مباشرته مذبحه دير ياسين فتفاخر بقتل 245 رجلاً وامرأة وطفلاً في هذه المذبحة. فأفكار هرتزل ما زالت حية في فلسطين المحتلة، فالقتل طهارة عند اليهودي وهذه «نعمة شيمر» توضح ذلك:

لو أنهم تلاميذ مجتهدون
لكانوا استخدموا الدبابة من مسافة قريبة
ودمروا البيوت والشوارع ولم يتركوا أحداً
وبهذا يكونون قد حافظوا على طهارة السلاح
وإذا لم يكن القتل فاحتجاز الضحية في قريته أو منطقتة ومنعه من مغادرتها للقيام بأي عمل كان، لفترة غير محددة وقد كثر بصورة خاصة استعمال هذه القيود ضد مواطنين عرب لهم ارتباط بمنظمات سياسية أو لهم نشاط اجتماعي أو ثقافي لا يرضى عنه الحكم العسكري.

من المحزن والمأساوي أن نحاول فهم المسألة في سياق التاريخ العام وبمعزل عن النظام العالمي. فالصهيونية تستمد خصائصها من خصائص النظام السائد في العصر الراهن وبالتالي فإن فضع خصائص هذا النظام فضع لخصائص الصهيونية، وعندما نتصدى لبعض المقولات الملفقة والخاطئة التي فرضتها القوة الفاشية وأنجتها الأوهام والأخطاء فإن ذلك يعني حكماً التصدي للمقولات الصهيونية.

أرى العيون الميتة الصامتة
أرى حكمة الدولة
حكمة الحرب في أفواه المجانين
الحساب سنجرية فيما بعد
أما الآن فأنا القاتل
قد يعتقد قارئ هذا النص أن الشاعر يحتج على القتل ويدعو لحاسبة الطغمة العسكرية المحركة للسياسة الصهيونية ولكن يتناسى أنه شارك في القتل. وكان يستطيع أن يرفض المشاركة برفض قتل الأبرياء ولكن عنصريته أبت عليه ذلك.

لو أنهم تلاميذ مجتهدون
لكانوا استخدموا الدبابة من مسافة قريبة
ودمروا البيوت والشوارع ولم يتركوا أحداً
وبهذا يكونون قد حافظوا على طهارة السلاح
وإذا لم يكن القتل فاحتجاز الضحية في قريته أو منطقتة ومنعه من مغادرتها للقيام بأي عمل كان، لفترة غير محددة وقد كثر بصورة خاصة استعمال هذه القيود ضد مواطنين عرب لهم ارتباط بمنظمات سياسية أو لهم نشاط اجتماعي أو ثقافي لا يرضى عنه الحكم العسكري.

من المحزن والمأساوي أن نحاول فهم المسألة في سياق التاريخ العام وبمعزل عن النظام العالمي. فالصهيونية تستمد خصائصها من خصائص النظام السائد في العصر الراهن وبالتالي فإن فضع خصائص هذا النظام فضع لخصائص الصهيونية، وعندما نتصدى لبعض المقولات الملفقة والخاطئة التي فرضتها القوة الفاشية وأنجتها الأوهام والأخطاء فإن ذلك يعني حكماً التصدي للمقولات الصهيونية.

تفيد هذه الثوابت التي يطرحها «ديدي منوس» عندما جسد مبادئ «كامب ديفيد» في قصيدة «الغيبوبة الساحرة»:

كذلك تذكر الأساطير
مجري أحداث وأمر، ومواقف
دمر «بيت الملكة» قبل الإذن
رغم اليأس والبكاء
بكامب ديفيد تكمن الحياة
هناك «إذا لم تحكم الرغبة»
فسيفر السلاح نفسه

دونية العربي مقابل الصهيوني

«يهودا بورلا» قاص صهيوني يظهر البطل في قصته «زوج في شعبه» مخلصاً لقصيته يقدم كل شيء من أجلها. يتخلى عن المكسب والمال في سبيل إنجاح مهمته «فلقد قبل جدعون المهمة المناطة به، شراء الأسلحة، دون نقاش، وقام بتنفيذها على أحسن وجه وحكمة»، بينما يظهر لنا العربي غيباً يتراجع بسهولة أمام المغريات المادية، ومع أنه يعرف كما ذكر «بورلا» في قصته «أن السلاح سيصل إلى الهاجاناة»، بورلا هنا يتفق مع «سمولنسكي» في قصته «في ظل البيارات» الذي أورد على لسان إحدى العائلات اليهودية التي تعيش في بيروت «إنك تستطيع شراء العرب بالمال، لأن المال عندهم هو كل شيء»، وهنا تزوير حقيقي للتاريخ، ففرق كبير بين العربي في مروءته وبين اليهودي في جبنه وشحه القاتل. وليس غريباً ما أوضحتها الآداب العالمية من هذا الأمر وأبرزها «قصة تاجر البندقية»!!

مفهوم البطولة عند الصهاينة

والبطولة عند الصهاينة قاعدة عريضة تمتد لتصل للأطفال أيضاً. فلقد برزت لهجة «السوبر طفل» الإسرائيلي. بكل صلفها ووقاحتها وعنفها واستخفافها في أعمال الكتاب الصهاينة «كرميلي، وعوديد، ووان سترنج، وستيمير، فكل أعمال هؤلاء تمجد بطل اليهود كبطل أسطوري، حتى كلاب اليهود أفضل من كلاب العرب. فالكلبة «غريت» توصل الورقة لمعسكر الجيش بل وتبلغ عن نشاط القوات السورية أي أن اليهودي يرى في الكلاب أفضلية على العرب ويرى هؤلاء الكتاب أن اليهود عندما يبدؤون بإطلاق النار يصاب الجنود العرب بالهلع ويركنون إلى الفرار».

خاتمة
وهكذا يتضح لنا أن الاستيطان والاستيلاء على الأرض منذ البدايات الأولى للهجرة الصهيونية واكبتها حركة أدبية وفكرية نشطة تدعو لامتلاك الأرض محاولة تزوير التاريخ بأن هذه الأرض بدون سكان. وأن الصهاينة الرواد هم الذين عمروها بعد أن كانت مستنقعات وصحاري مليئة بالحشرات والأمراض. وما رواية شموئيل عجنون «بالأمس الأول» إلا صورة واضحة للصهيونية الأدبية المبكرة.

الاستيطان هذا وبالمفهوم الصهيوني لا حدود له، فهو قديم جديد ومتجدد تحكمه عوامل القوة واستغلال الظروف العالمية بما في ذلك الاتكاء على حليف قوي يمكن أيضاً استبداله في الوقت المناسب. وفي هذا المجال ها هي الصهيونية تعمل كل يوم على تهئية الظروف الملائمة لابتلاع المزيد من الأرض عن طريق العدوان المتكرر هنا وهناك. وبمساندة الإمبريالية الأمريكية المعادية للأقطار العربية تشبياً مع السياسة الثابتة التي تقوم على فرض الأمر الواقع. وقت شكلت هذه الحملة الاستيطانية ذروة خطيرة لهذه السياسة التوسعية العدوانية دون أدنى اعتبار للمواثيق الدولية أو قرارات الأمم المتحدة التي تدين سياسة ضم الأراضي بالقوة.

على هذه القاعدة من الوعي الأيديولوجي السلبي. وظفت الصهيونية الأدب والفن لتمرير سياستها الاستيطانية ولخلق الجيل الإسرائيلي المشوه فكرياً بزعم الأفكار السامة والهدامة في عقله على أساس أن هذه الأرض للإسرائيليين فقط. ومن عليها من سكان من غير الإسرائيليين غرباء وبقايا مستعمر قديم. بل تطرقت الصهيونية الأدبية للشخصية العربية مبرزة إياها في أدنى مراحل الانحطاط البشري الجسماني والسلوكي. وكأن العرب من بقايا الحلقات المفقودة في كائنات علم التطور. فالعربي جاهل، سارق، جبان، سيئ، يشبه الخنزير في تناوله للطعام، دموي وقاتل، وغريب الملامح شعره أخضر وأشعث يجب القتل والنساء ويغتصب الأطفال. ورجل هذه صفاته الأجدر به أن يموت. هذه المفاهيم تزرعها الصهيونية في نفوس الأطفال كل يوم، وتحقن بها أفكارهم وعقولهم. وتشكل منهم بلدوزر الفعل العدواني القادم ضد العرب، بل وضد أنفسهم أيضاً.